جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

محاضرات

الأدب العربي الحديث – النثر

للمرحلة الرابعة

محاضرة رقم(1)

إعداد

أ. د. إبراهيم مصطفى الحمد

2023

تطور النثر العربي

النثر لغة :

يقول صاحب اللسان: النثر نَثْرُكَ الشيءَ بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسكر وكذلك نثر الحبّ إذا بُذر . فالمعنى اللغوي يعني الشيء المبعثر (المتفرق) الذي لا يقوم على أساس في تفرقه وبعثرته، أي: لا يقوم على أساس من حيث الكيف والكم والاتساع.

النثر اصطلاحاً:

هو الكلام الذي ليس فيه الوزن ويعتمد على الحقائق. بتعبير آخر: النثر هو كلام المقفى بالأسجاع.

النثر أدب إنساني، وهو على **ضربين:** أما **الضرب الأول** فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحيانا من أمثال وحكم، وأما **الضرب الثاني** فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يعني النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص، ويشمل الخطابة والمقالة والرسائل والقصص وغيرها، مما يكتب نثراً.

نشأة النثر الفني:

يجد الباحث عنتا كبيرا حينما يحاول تحديد الوقت الذي نشأ فيه النثر الفني في اللغة العربية. إذ إن الباحثين الذين تصدوا لدراسة الأدب الجاهلي قد اضطربوا في تقدير الوجود الأدبي لعرب الجاهلية وبخاصة فيها يتعلق بالنثر، ولم يستطيعوا على الرغم من جهودهم ودراساتهم أن يصلوا في ذلك الموضوع إلى نتيجة ثابتة أو رأي موحد يمكن الاطمئنان إليه . أما هذه الآثار النثرية المختلفة التي تنسب إلى الجاهليين، فيكاد مؤرخو الأدب

يتفقون على عدم صحة شيء منها، *والسبب في عدم الثقة بهذه النصوص هو أن وسائل التدوين لم تكن ميسرة في العصر الجاهلي.*

الآراء حول نشأة النثر الفني في العصر الجاهلي:

يؤكد الدكتور زكي مبارك أنه قد كان للعرب في الجاهلية نثر فني له خصائصه وقيمته الأدبية، وأن الجاهليين لابد وأن يكونوا قد بلغوا في ذلك المضمار شأوا بعيدا لا يقل عما وصل إليه الفرس واليونان في ذلك الوقت، بل أنهم في إنتاجهم الأدبي في النثر لم يكونوا متأثرين تأثراً كبيرا بدولة أخرى مجاورة أو غير مجاورة، وإنما كانت لهم في كثير من الأحيان أصالتهم وذاتيتهم واستقلالهم الأدبي الذي تقتضيه بيئتهم المستقلة، وحياتهم التي كانت أقرب إلى الانعزال. وإذا كانت الظروف المختلفة لم تساعد على بقاء هذا التراث من النثر الجاهلي، فليس معنى ذلك أن نهدره ونحكم بعدم وجوده، وإنما يجب أن نلتمسه في مصادر أخرى. ونحن إن فعلنا هذا فسوف نجد بين أيدينا حجة لاتنكر، ودليلا لا يجحد على أن ثمة نثرا جاهليا، ألا وهو القرآن الكريم. فإذا كنا نؤمن بأن هذا القرآن قد نزل لهداية هؤلاء الجاهليين، وإرشادهم، وتنظيم حياتهم في نواحيها المختلفة من دينية، وأخلاقية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية، وأنه كان يخاطبهم وهم بطبيعة الحال لايخاطبون إلا بأسلوب الذي يفهمونه ويتذوقونه، وأنه كان يتحداهم في محاكاته، والإتيان بسورة من مثله ولا يسوغ في العقل أن يكون هذا التحدي إلا لقوم قد بلغوا درجة ما من بلاغة القول، وفصاحة اللسان تجعلهم أهلا لهذا التحدي حتى يصدق معناه، إذا كان هذا كله، وأن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب وعلى لسان واحد منهم ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ تأكد لنا أن العرب الجاهليين قد عرفوا النثر الفني، وأن القرآن يمكن أن يعطينا صورة . ولو تقريبية . عن شكل هذا النثر، ومنهجه، وحالته التي كان عليها ، وكذلك يعتقد الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي بوجود النثر الفني في الجاهلية.

ويرى **الدكتور طه حسين** بأن النثر الفني بمعنى أنه تعبير جميل رصين محكم يستدعي الرؤية والتفكير والإعداد، لا يتصور أن يكون موجودا في العصر الجاهلي؛ إذ أن هذا اللون من النثر إنما يلائم نوعا من الحياة لم يكن قد تهيأ للعرب إذ ذاك. فهذه الحياة الأولية الفطرية السهلة التي كان يحياها العرب قبل الإسلام لم تكن تسمح بقيام هذا اللون من الكتابة الفنية التي تستدعي بطبيعتها الرؤية، والتفكير، ووجود جماعة إنسانية منظمة تسودها أوضاع سياسية واجتماعية معقدة. وهذا النثر المنسوب إلى الجاهليين ليس إلا شيئا منحولا

مدسوسا عليهم. حيث إنه على هذا النحو الذي روي به لا يكاد يمثل الحياة الجاهلية تمثيلا كاملا. فهذه الخطب، والوصايا، والسجع، والكلام الذي ينسب لقس بن ساعدة، وأكثم بن صيفي، وغيرهما يكفي أن ننظر إليه نظرة واحدة لنرده بأجمعه إلى العصور الإسلامية التي انتحلت فيها كل هذه الأشياء؛ لنفس الأسباب التي انتحل الشعر من أجلها وأضيف إلى الجاهليين.

ويتحدث **شوقي ضيف** عن نشأة النثر الفني في الأدب العربي بقوله نحن لا نغلو هذا الغلو الذي جعل بعض المعاصرين يذهب إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية أو النثر الفني منذ العصر الجاهلي، فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسية لا يؤيد ذلك إلا إذا اعتمدنا على الفرض والظن، والحق أن ما تحت أيدينا من النصوص الوثيقة يجعلنا نقف في مرحلة وسطى بين الرأيين، فلا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر الجاهلي، بل نضعها في مكانها الصحيح الذي تؤيده المستندات والوثائق، وهو العصر الإسلامي.

النثر في العصر الإسلامي:

النثر الفني في عهد النبوة، لم يكد يختلف اختلافا جوهريا عن النثر الجاهلي. دخل النثر العربي في طور جديد بظهور الإسلام، بعد أن تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى. ولم يكن ثمة بد من أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها. وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر، لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطا سابقيه، ويلتزم أصولا محددة، ولذلك يكون أبطأ من النثر استجابة لدواعي التطور.

أما أغراض النثر ومعانيه، فإنها بلا شك قد تغيرت تغيرا محسوسا بظهور الإسلام، وتلوّن النثر في هذا العهد بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان خطابة، وكتابة، ورسائل وعهودا، وقصصا، ومناظرات، وتوقيعات، وكان علي كل حال أدبا مطبوعا. وامتاز النثر في هذا العهد بالإيجاز على سنة الطبيعة العربية الأصيلة.

النثر في العصر الأموي:

يقول الدكتور شوقي ضيف: أن الكتابة نمت في العصر الأموي نموا واسعا، فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات، وقد ألفوا فعلا كتبا كثيرة.

وقد كانت لمن يعرف الكتابة مكانة رفيعة عند الناس، إذ كانوا يعرفون له قدرة، وكان سعيد بن العاص يردد دائماً قوله: من لم يكتب فيمينه يسرى. ولعل من أهم الأسباب التي هيأت لرقي الكتابة الفنية في هذا العصر تعريب الدواوين في البلاد المختلفة، وتعقد الحياة السياسية، وكثرة الأحزاب والمذاهب.

وقد تجلت بواكير الكتابة في أواخر العصر الأموي بفضل موهبة **عبدالحميد بن يحيى الكاتب في القرن الثالث الهجري** ولقد أجمع النقاد والمؤرخون في القديم والحديث على أن عبدالحميد إمام طور جديد في الكتابة العربية، وأنه هو الذي وضع الأساس لهذا المنهج الكتابي الذي اقتفاه الكتاب من بعده، وهو أبلغ كتاب الدواوين في العصر الأموي وأشهرهم، وقد ضربت ببلاغته الأمثال، وكان عبدالحميد أول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر ، وقال ابن النديم: عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل .

النثر في العصر العباسي:

زخر العصر العباسي بالأحداث التاريخية، والتقلبات السياسية، كما زخر بالتطورات الاجتماعية التي نقلت العرب من حال إلى حال، وقد كان لكل هذا، فضلا عن نضج العقول بالثقافة، أثر واضح في تطوير الأدب بعامة، والكتابة بصفة خاصة. لقد تقدمت الكتابة الفنية في هذا العصر تقدما محسوسا؛ وسارت شوطا بعيدا في سبيل القوة والعمق والاتساع.

وأصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع، فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي، والنثر الأدبي الخالص، وكان في بعض صوره امتدادا للقديم؛ وكان في بعضها الآخر مبتكرا لا عهد للعرب به وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب وللكتاب باعثا على النهوض بالكتابة، داعيا إلى ارتفاع شأنها، وسمو منزلتها، ثم كان التنافس القوي بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافزا على تجويدها والتأنق في أساليبها.

والأغراض التى عبر عنها النثر الفني في هذا العصر قد اختلفت وبعد أن كان النثر الأموي خطابته وكتابته منصرفا بوجه عام إلى أغراض سياسية وحزبية، ولم يتجه إلى الأغراض الأخرى إلا في صورة ضئيلة،

فانه في العصر العباسي قد اتجه إلى كثير من الأغراض والموضوعات الشخصية والاجتماعية والانسانية؛ كالمدح والهجاء والرثاء والاعتذار والتهنئة والتعزية والاستعطاف، والوصف والنسيب والفكاهة والنصح ، ونستطيع القول بأن النثر خطا خطوة واسعة؛ فهو لم يتطور من حيث موضوعاته وأغراضه فقط؛ بل إن معانيه قد اتسعت وأفكاره قد عمقت، وأخيلته قد شحذت؛ لأن مشاهد الحياة ومقوماتها العامة قد تغيرت.

مظاهر نهضة النثر في العصر العباسي:

1. تنوع فنونه وأغراضه: فقد تناول كل مجالات الحياة واستخدمته الدولة في الشؤون السياسية والاجتماعية والثقافية.

2. وصول الكتاب إلى المناصب الوزارية.

3. أنه أصبح وعاء لثقافات جديدة، كانت نتيجة لامتزاج الفكر العربي بأفكار الأمم الأخرى.

4. رقي الأفكار وعمق المعاني.

5. التفنن في أساليبه وظهور مدارس متنوعة.

أسباب نهضة النثر في العصر العباسي:

1. استقرار الأمور في الدولة واتساع العمران، وما يتبع ذلك من رخاء.
2. النضج العقلي وظهور آثار التقدم الفكري في الدولة.
3. ظهور أجيال جديدة من المثقفين من أبناء الأمم المستعربة الذين جمعوا إلى الثقافة العربية الأصيلة فنونا جديدة من ثقافات آبائهم الفرس، الهنود و اليونان.
4. تشجيع الخلفاء والأمراء للكتاب وإغداق الأموال عليهم.
5. وصول الكتاب إلى المناصب الكبيرة جعل الكتابة مطمح كل راغب في الجاه والسلطان.
6. التنافس بين الكتاب في سبيل الإجادة الفنية وتشجيع الخلفاء والأمراء لهم.

تأصيل القصة في الأدب العربي القديم

يتوافر الماضي العربي على مادة سردية غنية، فقد عرف العرب أنواعاً قصصية بارزة من أهمها:

أ./ أساطير الأولين: وهي أقرب للقصص البطولي المدهش، وأشهر أعلام هذا النوع قصاص جاهلي اسمه النضر بن الحارث. جلب قصصه من بلاد فارس والحيرة (عاصمة المناذرة)، فروى قصص رستم وإسفنديار وغيرهما قبل جمع هذه القصص فيما يعرف بالشاهنامة الفارسية، وهي ملحمة مطولة منسوبة للفردوسي.

ب./ الخرافة: وجاء اسمها من قصة عرفت باسم (حديث خرافة)، وحسب القصة: خرافة رجل استهوته الجن فعاش معها زمناً، ثم عاد ليحدث بقصته العجيبة، فصارت الخرافة من بعد اسماً للقصة العجيبة المرتبطة بعالم الجن وقصص الكهان.

ج./ السيرة: ومن نماذجها السيرة النبوية لابن إسحاق، وابن هشام، والسيرة الشعبية (مثل سيرة عنترة، وسيرة الزير سالم – المهلهل بن ربيعة، وسيرة سيف بن ذي يزن وسيرة الأميرة ذات الهمة... وغيرها). أما السيرة الذاتية، فمن أهم أمثلتها: كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، وكتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي.

د./ الرسالة القصصية، أو القصة الفلسفية: ومن نماذجها: قصة حي بن يقظان لأحمد بن طفيل، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي. والرسالة القصصية حكاية مطولة نسبياً، تقترب من طول الرواية في العصر الحديث، وتعالج فكرة تأملية فلسفية بأسلوب قصصي، ومن إنجاز فكرة الرحلة إلى العالم الآخر، تأثراً برحلة الإسراء والمعراج، وقد أثرت رسالة الغفران مثلاً في دانتي الإيطالي الذي كتب (الكوميديا الإلهية) في صورة رحلة إلى عالم الفردوس والجحيم بما يقترب من بنية رسالة الغفران.

هـ./ ألف ليلة وليلة: وهي القصة المشهورة المرتبطة بشهرزاد وشهريار، وتعد من نفائس السرد العالمي بعد أن ترجمت إلى أكثر لغات العالم، وقد كرست ألف ليلة وليلة جملة من مبادئ السرد العالمي كمبدأ الإطارية،

والربط بين القصة والحياة، وفكرة القصة المسلسلة (المتوالية القصصية)، وتعميق ارتباط السرد بالليل (شهرزاد تسكت حين يصيح الديك)، وعدت أيضاً من أرفع نماذج الأدب العجائبي في العالم.

و./ المقامة: وقصص المقامات قصص واقعية ناقدة تصور تحولات البطل وأزماته، ومن ناحية شكلها القصصي تقترن ببطل محتال ذكي وبراوي، أو سارد مصاحب للبطل، كما تتميز بلغتها المسجوعة واضحة الإيقاع،وتطعم أحيانا بالشعر، وأشهر نماذجها: مقامات بديع الزمان الهمذاني، ومقامات الحريري.

ز./ **المنامة:** من نمط الأحلام، وتقرن مبكراً بين السرد والحلم، وأهم نماذجها: منامات الوهراني.

ح./ **تكاذيب الأعراب وقصص الفشر:** القصة هنا كذبة بيضاء تميل إلى المبالغة والإدهاش، وقد أفرد لها أبو العباس المبرد باباً واضحاً في كتابه (الكامل في اللغة والأدب).

ط./ النوادر: وهي الحكاية المرحة أوالطرفة، وترتبط بشخصيات ضاحكة ومضحكة، منها شخصيات في عصر صدر الإسلام، وشخصيات الحمقى والطفيليين من مثل: هبنقة، جحا.

ي./ قصص الرحلة: مثل رحلة ابن فضلان، ورحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة.

ق./ الكرامة الصوفية: المرتبطة بقصص العجائب عن كرامات الأولياء والصالحين من المتصوفة، كالحلاج ومحيي الدين بن عربي، وتتوافر الرسالة القشيرية على نماذج مناسبة منها، وكذلك كتاب أخبار الحلاج.

هذا فضلا على الخطب والرسائل وسجع الكهان الذي كان معروفا منذ ما قبل الإسلام وبقي حاضرا بعد الإسلام أيضا ، أما الخطب والرسائل فهي موجودة حتى يومنا هذا.

– من أبرز المصادر السردية المدونة أو المكتوبة التي يمكن أن نقرأ فيها نماذج مميزة من السرد العربي القديم ما يلي:

١. كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع.

٢. كتاب البخلاء للجاحظ.

٣. كتاب أمثال العرب للمفضل الضبي.

٤. الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي.

٥. الفرج بعد الشدة، للقاضي التنوخي.

٦. كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه.

٧. كتاب أخبار عبيد بن شريه.